

الأوبئة في العهد العثماني في تلمسان من خلال شواهد القبور دراسة لبعض النماذج

Epidemics in the Ottoman era in Algeria through tombstones

Study of some models

د. يحيوي العمري^{1*}

¹ جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان (الجزائر)، omaryahiaoui90@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/01 تاريخ القبول: 2021/09/11 تاريخ النشر: 2021/12/20

ملخص:

لقد تعرضت تلمسان في العهد العثماني إلى سلسلة من الموجات الوبائية والأزمات الصحية التي كانت لها آثار سلبية على البنية الاقتصادية والتركيبية الاجتماعية للدولة نتيجة الخسائر المادية والبشرية، وقد سجلت المصادر التاريخية هذه الوقائع المؤلمة بكل تفاصيلها، ولكنها في أغلب الأحيان تغاضت عن سرد القوائم الاسمية وكذا الوظائف الخاصة للذين توفوا جراء هذا الوباء حيث نجد هذه المعلومات المهمة قد وردت في مضامين شواهد القبور.
كلمات مفتاحية: الأمراض؛ الأوبئة؛ العهد العثماني؛ شواهد القبور؛ الجزائر.

Abstract:

Tlemcen was exposed in the Ottoman era to a series of epidemiological waves and health crises that had negative effects on the economic and social structure of the state, as a result of material and human losses, and historical sources recorded these painful facts in all their details, but most of the time they overlooked the listing of the nominal lists As well as the special jobs for those who died a result of this epidemic, as we find this important information in the contents of the tombstones.

1. مقدمة:

لقد شهد المغرب الإسلامي طيلة فتراته التاريخية أحداث ووقائع مهمة أثرت على مسار دوله ، وقوضت في الكثير من المرات بنيانه نتيجة الهزات المتتالية التي تعرضت لها بنيته الاقتصادية وتركيبته الاجتماعية نتيجة الأزمات الصحية والمظاهر الوبائية التي ما

فتأت تنتشر في كل مرة مخلفة تداعيات كبيرة على الاقتصاد من غلاء للمعيشة وقلة الموارد الاقتصادية والمواد الغذائية، إضافة إلى تردي الأوضاع الاجتماعية واختلالات في المنظومة الديموغرافية للسكان نتيجة الأعداد المهولة من الضحايا التي كانت تحصدتها هذه الأمراض الفتاكة، هذه الحوادث المؤلمة والأيام العصيبة قد دونتها المصادر التاريخية وحفظت لنا صفحاتها مشاهد وحقائق عن خطورة هذه الأوبئة وأسبابها، فهذه الوثائق المكتوبة حتى وإن سردت لنا هذه الوقائع، فإنها لم تغص في سجلات هذه الضحايا ولا تاريخ وفاتهم في الكثير من الأحيان، إن هذا النقص المسجل في إحصاء أعداد المتوفين والقوائم الإسمية للمتوفين قد عوضته تلك الشواهد القبرية التي حفظت لنا نصوصها في أغلب الأحيان معلومات قيمة ومهمة عن أسماء الأشخاص الذين كانوا ضحايا لهذه الأوبئة الأمراض القاتلة والأوبئة الفتاكة فتمنت سجلاً بأسمائهم وتواريخ وفاته بالتدقيق، ونحن نعلم أن هذه النقوش الكتابية الشاهدية هي في حد ذاتها وثائق تاريخية في غاية الأهمية يصعب الطعن فيها بسهولة، ومن هذا المنطلق تأتي دراستنا لتكشف أهم هذه النقوش القبرية وما تتضمنه كتاباتها الشاهدية من معلومات وحقائق قيمة، ربما لم تحفل بها بطون كتب المؤرخين والإخباريين، وحتى وإن وجدت فربما طالها الطمس أو اندرست معالمها، وبالتالي ضاع قدر كبير من المعرفة، والإشكالية المطروحة ما مدى إسهام شواهد القبور في إثراء الرصيد المعرفي الخاص بتاريخ الأوبئة والأمراض في العهد العثماني؟

2. شواهد القبور:

أهمية شواهد القبور: تُعد شواهد القبور سجلاً ثرياً بالمعلومات القيمة التي يحتاج إليها المؤرخ والأثري وعالم الاجتماع والمهتم بالفنون والصنائع وغيرها من العلوم الأخرى، فهي معين لا ينضب ووثيقة من وثائق التاريخ الصادقة الموثوق في صحتها، والتي لا تقبل الطعن فيها بسهولة، (ابن قريه، 2011: 208). ومعلومات قيمة في الأنساب والأسماء والبلدان والتراكيب اللغوية فضلاً عن النصوص الدينية الواردة عليها والعبارات الدعائية والألقاب والأجناس، كما أن شواهد القبور الإسلامية، تبدو أهميتها واضحة جلية فيما

يتعلق بدراسة أسلوب الخط العربي وأنواعه ، وانتشاره وتطوره في مختلف بلدان العالم الإسلامي، كما أن كثيرا من شواهد القبور الإسلامية، ضمت عناصر زخرفية نباتية وهندسية، على جانب كبير من الأهمية (شيحة، 1988: 11). والكتابات الشاهدية المسجلة على شواهد القبور هي نوع من الكتابات التذكارية، حيث تم العثور على نماذج لا حصر لها، وتتميز ببساطة المادة والصنع، ويرجح أن استخدامها أطراف العالم الإسلامي جاء نتيجة طبيعية لرغبة العرب ممن رحلوا عن ديارهم ونزولهم في أراض جديدة فكان لزاما عليهم التعريف بأنفسهم بعد الوفاة، وهي رغبة كثيرا ما تتملك نفس المغترب. (جمعة، 1966: 83) كما كانت هذه الشواهد تُعد خزاناً للمعلومات التي من شأنها الإفادة في البحوث والدراسات التي تبحث في النمو الديموغرافي والتوسعات العمرانية لمختلف المدن الإسلامية لمعرفة تطورها العمراني والبشري، وكذا الدراسات التي تخوض بالعلوم الاجتماعية والإنسانية واللسانية. (معزوز، 2005: 28)، وبالرغم من إجماع أراء الفقهاء، واتفاق أغلبية العلماء على كراهية العناية بتشييد القبور والكتابة عليها، والتأنيق فيها من الناحية الزخرفية، فإن المسلمين لم يلتزموا بما رسمه لهم علماء الإسلام، وفقهاء الدين، على العكس زادت عنايتهم، بزخرفة الشواهد حتى أنها تُعد بحق- بما يُنقش على ألواحها- وكتب على تراكييها- سجلاً حافلاً بالأحداث التاريخية والسياسية والمكانة الاجتماعية والقوة الاقتصادية، والنصوص التذكارية والعبارات الدعائية، والألقاب الفخرية، والأنساب العائلية، ومن ثم أثر كل هذا وانعكاسه على الناحية الفنية. (التهامي، 2005: 265-266).

2.2 تعريف الأوبئة:

يعرف الوباء في اللغة بأنه كل مرض عام (ويمد ويقصر)، وجمع المقصور أوباء وجمع الممدود أوبئة، وقد وبئت الأرض تَوْباً فهي مَوْبُوَةٌ إذا كثر مرضها، وكذلك وُبِئَتْ تَوْباً وباءةٌ فهي وبئةٌ ووبئةٌ على فَعْلَةٍ وفَعِيلَةٍ وَأَوْبَاتٌ أيضاً فهي موبئةٌ، واستوبأت الأرض، وجدتها وبئةً. (الجوهري، 1984: 1201) ، وقد تكرر في الحديث ومنه حديث عبد الرحمن

بن عوف:" إن جرعة شروب أنفع من عب موب" أي: مورث للوبا، هكذا يروى من غير هم، وإنما ترك الهمز ليوافق به الحرف الذي قبله، وهو الشروب، وهذا مثل ضربه لرجلين أحدهما أرفع وأضر، والآخر أدون وأنفع. (ابن الأثير، 1994: 955).

وأقدم طاعون في الإسلام ظهر في أيام عمر بن الخطاب وقتل من الجملة أبو عبيدة بن الجراح، وأخطروا به وهو ما سمي بالموت الأسود وحدث في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي وقدر عدد الموتى بعشرات الملايين، ويبدو أنه ظهر في الصين عام 1233، ثم انتقل إلى الشرق الأوسط ثم إلى أوروبا بأكملها، وقد ذكر الغزي في تاريخه. (قطاية، 1982: 59) ويهتم علم الأوبئة بالأساس بدراسة الحالات الجماعية للعدوى، أي العدوى الجماعية، وليست الحالات الفردية للمرض، فالأمراض الوبائية هي في الأصل أمراض معدية تصيب الأعداد الكبيرة من البشر، وبذلك فليست كل الأمراض المعدية وبائية، ورغم أن علم الأوبئة يهتم بدراسة سبب المرض الذي يسبب هذه العدوى الجماعية، فإنه يهتم بمسألتين على وجه الخصوص وهما: أولاً: انتشار الأمراض في المكان وبين الجموع مثل الجموع العمرية والعرقية أو الإثنية وكذلك الجموع التي تعتمد على الجنس (الذكور والإناث)، ثانياً: العوامل التي تؤدي إلى انتشار هذه الأمراض، مثل العوائل الناقلة كالحشرات والفئران، وبذلك فعلم الأوبئة يهتم بكل الأسئلة حول المرض ماعدا تلك التي تتعلق مباشرة بأعراض هذه الأمراض وطرق الشفاء منها. (واتس، 2010: 08)، وقد كتب ك دافيد باترسون وجيرالد و. هارتويج في مقدمتهما لكتاب " المرض في التاريخ الإفريقي " الذي نُشر في 1978م: " أهمل مؤرخو أفريقيا عموماً دراسة الظروف الصحية في الماضي- كما أهملوا دراسة دور المرض والرعاية الصحية والطب في التاريخ – وذلك على الرغم من ثقل الأهمية الواضحة لثقل عبء المرض على القارة الإفريقية. (أونولد، 1988: 11)، فباستثناء قلة من العلماء الذين حاولوا البحث عن تفسيرات "علمية" للكوارث الطبيعية والأوبئة التي هدد سكان المغرب الوسيط، نجد بعض المؤلفين ينساقون وراء التفسيرات الخرافية أحياناً و" الغيبية" أحياناً أخرى، ويأتي العلامة ابن خلدون على رأس الذين

حاولوا أن يجدوا تفسيراً منطقياً لارتفاع أعداد الموتى وكثرة المجاعات في الفترات المتأخرة من حياة الدول، فالمجاعات ترجع- في نظره- إلى عدم اهتمام الناس بالفلح بسبب كثرة العدوان على المحاصيل أو ارتفاع مقادير الجباية بسبب حاجة السلطان إلى الأموال، أما ارتفاع عدد الأموات فيعود إلى كثرة المجاعات أو كثرة الاضطرابات والفتن أو حدوث الأوبئة بسبب فساد الهواء (بولقطين، 2002: 30)، وفي هذا يقول ابن خلدون: "وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائماً فيسري الفساد في مزاجه فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحُميات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك." (ابن خلدون، 1999: 376).

1.3- تطور الأوبئة في المغرب الأوسط:

لقد عاش المغرب الإسلامي فترات عصبية ، وأياماً صعبة نتيجة تفشي الأوبئة والأمراض التي أنهكت كاهل دول المغرب فنخرت قواها الاقتصادية والسياسية وتهللت أنظمتها الاجتماعية ، نتيجة ما كانت تخلفه هذه النوازل من خسائر مادية ، ناهيك عن الأعداد الكبيرة من الضحايا ، وهذا ما عبر عنه العلامة ابن خلدون ، الذي كان قد عايش مشاهد مؤلمة ومحزنة لانتشار المجاعة والأوبئة ، بقوله: " وما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثير من محاسن العمران ومحاهها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغها الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وقد تداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل (ابن خلدون، 1999: 53)، فدخل المغرب الإسلامي عانت من تداعيات تفشي العديد من المجاعات

والأوبئة ، فبعضها ظهر في أوج قوة هذه الدولة وأكثرها سُجل في أواخر هذه الدول ، وهي الفترة التي تـضمحل قوتها ويصيبها الهـرم وتندساق إلى الزوال، وهو ما حصل مع الدولة الموحدية، التي رغم امتدادها وتوسعها في أجزاء مترامية من حدود المغرب الإسلامي ، إلا أنها لم تسلم من تفاقم هذه الظواهر الوبائية التي عصفت بمقدرات الدولة ، حيث يقول ابن أبي زرع في ذلك: " وفي هذه المدة (سنة خمس وثلاثين وخمسمائة) غلاء شديد ووباء مفرط هرب فيها أكثر أهل البلاد ووصل قفيز القمح فيها ثلاثين ديناراً. (الفاسي، 1999: 336). ويضيف ابن عذاري: " وفي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة نزل الوباء والطاعون بمدينة مراكش في أول شهر ذي القعدة ولم يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة قبله ، وانتهى عدد الأموات في كل يوم مائة إلى مائة وتسعين شخصاً وأكثر من ذلك حتى إن الناس لا يستطيعون بحملهم إلى الجامع للصلاة عليهم ، فأمر الخليفة أن يصلى عليهم في سائر المساجد رفقا بالناس في ذلك . (المراكشي، 1985: 136).

ولقد توالى على دولة عبد المؤمن جملة من الأزمات الصحية ، إضافة إلى ضائقة اقتصادية شديدة ، عانى فيها السكان من الغلاء الشديد ، والمجاعة ، والتغيرات المناخية التي زادت من حدة انتشار الأمراض التي عصفت بالكثير من الأرواح ، وهو ما يؤكد مرة أخرى صاحب كتاب البيان المغرب بقوله: " وفي سنة 634هـ / 1236م واجتمعت الوفود من أهل أشبيلية وسبته وغمارة البحر من البلدين ووافقوا الصيف بمراكش ومزاجها الانحراف وهوؤها رديء بكثرة الأمطار من الجذب الذي كان تقدم أعواماً فكثرت الرطوبة وحدث الوباء فتغيرت أحوال أهلها فضلاً عن سواهم لاسيما أهل البحر فنزل الوباء بهم وقتل منهم عدداً كثيراً. (المراكشي، 1985: 345).

ولقد تأثر المجتمع التلمساني كغيره من المجتمعات تأثيراً شديداً بالكوارث الطبيعية والجوائح والأوبئة والأمراض الفتاكة، وبالمجاعات الناتجة عن الجفاف والإعصار والجراد، وبالأزمات السياسية التي تحدث من حين لآخر متسببة في حروب مدمرة ، فقد تركت هذه

الظواهر ثغرات مظلمة في حياة سكان مدينة تلمسان، وشلت حركتهم، وأعاقت تطورهم في بعض الفترات، وعلى الرغم من عدم توفر الإشارات والخصائص الديموغرافية لأهل تلمسان في العهد الزياني، إلا أننا نفترض بأن عدد الوفيات بسبب الكوارث والأزمات كان مرتفعاً في مدينة تلمسان (فيلالي، 2007: 243).

ولم يسلم العصر المريني من تفشي الظواهر الوبائية والأزمات الصحية ، التي انعكست سلباً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان ، حيث استفحل الغلاء ، وقلت المؤن مما أدى إلى انتشار المجاعات المصحوبة بالأمراض الفتاكة، وهو ما أكدته مرة أخرى صاحب كتاب روض القرطاس بقوله: " وفي سنة ثلاث وتسعين وستمئة كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر، هلك فيها خلق كثير، وبلغ القمح فيها عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواق بدرهم. (ابن أبي زرع، 1999: 539-540). وفي العهد الزياني استفحلت الكثير من الأوبئة والمجاعات ، خاصة في عهد السلطان الزياني أبو سعيد عثمان الثاني (ت753هـ/1353م) وقد عرف المغرب الأقصى انتشار هذا الوباء سنة قبل هذا التاريخ في عهد السلطان المريني أبو الحسن (ت732هـ/1352م)، واعتبر هذا المرض من أشد الطواعين فتكاً إذ لم يسلم منهم أي كائن حي، ففضى على خلق كثير من الناس في المغرب الأوسط، وكانت عاصمة الدولة الزيانية أشد تضرراً منه ، حيث فتك بعائلات بأكملها، مثلما ما حدث ما لأسرة العالم التفرسي التلمساني التي انقرضت كلها، من جراء هذا الوباء القاتل، فهذا الطاعون الأسود الذي ضرب منطقة المغرب الأوسط عامة ومدينة تلمسان خاصة سنة 750هـ/1348م ، كان قد تفشى في المغرب الأقصى قادماً إليها من الموانئ الساحلية إلى داخل البلاد فانتشر في تازة وفاس وسبتة وسلا وهي مدن احتلت فيها مركز الصدارة ، ومن غير المستبعد انتقال هذا الوباء إلى المغرب الأوسط عبر تنقلات التجار هذه المدن المغربية إلى بلاد المغرب الأوسط، الذي شهد موجة ثانية من الطاعون سنة 764-765هـ/1363-1364م في فترة حكم السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني ، حيث كان في هذه المرة وباءً عالمياً انطلق من أوروبا الغربية

عام (760هـ/1359م). ولم تتوقف موجات هذا المرض الفتاك الذي أضعف الدولة الزيانية نتيجة تداعياته الكبيرة على الاقتصاد والتركيبية الاجتماعية والديموغرافية ، حيث عاود الظهور مرة أخرى في عام 845هـ/1446م في مدة حكم السلطان الزياني أبو العباس أحمد العاقل بن أبي حمو موسى الثاني (834-866هـ/1431-1462م) . (بلعربي، 2009: 23-24).

وفي العهد العثماني لقد انتشرت في الجزائر خلال العهد العثماني عدة أوبئة خاصة وباء الطاعون الذي أودى بحياة عدد كبير من السكان ومن ضمنهم الجنود، وتجدر الإشارة إلى أن هذه العوامل لم تكن مقصورة على الجيش البري فقط بل كان لها تأثير على الجيش البحري (شويتام، 2011: 85). وقد شهدت الجزائر بفعل ذلك انهيارا اقتصاديا واضمحلالا اجتماعيا، نتج عنه سوء الأحوال الصحية والمعيشية أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر فأصاب الخراب الكثير من المدن والبادي، سرعان ما استتب الوضع وتحسنت أوضاع البلاد الجزائرية طيلة القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر، حيث شكل أكبر حافز، لوفود الجاليات الأجنبية، خاصة تلك التي انتقلت من الأندلس بعد نكبتها وأثروا الاستقرار بالمناطق الساحلية، حيث ازدهر عمران الكثير من المدن وانتعشت الفلاحة والتجارة بتا كوهرا وتلمسان ومستغانم وقلعة بني راشد (سعيدوني، 1984: 123). وأقدم وباء للطاعون الذي ذكرته سجلات الجزائر كان عام 960هـ/1552م، وكان من بين ضحاياه صالح باشا في عام 1555م، ومنذ ذلك التاريخ وإلى غاية عام 1784م ذكر هذا المرض الخطير 26 مرة في المخطوطات العربي وقد كان من أوائل ضحاياه المصابين الحماليين البحرين، ولتفسير هذه الظاهرة نقول أن هذا الوباء قد أتى عن طريق البحر، وأن ذلك الذي يعمل في البحرية يكون على اتصال مباشر مع الجراثيم المسببة للعدوى (Napoléon&berburgger , 1846:2006)، فمن سنة 1670 إلى 1700م تفشى الوباء بقوة في تونس والجزائر (شويتام، 2011 ، صفحة 85) بيد أن الأخطار تزايدت حيث أصيبت الجزائر وتلمسان وإقليم وهران في سنوات 1738، 1740، 1741م (شويتام، 2011: 85).

وحسب الإحصائيات التاريخية فإن هذه الأوبئة كانت أقل خطورة، فقد قدر عدد ضحايا الطاعون في عام 1788م ب 15793 ضحية منهم 13482 مسلم و1771 يهودي و540 مسيحي، وكان عدد ضحايا المسلمين يصل يوميا إلى 200 أو 240 ضحية، بينما قدر عدد ضحاياه بين سنتي 1792م -1793م ب 12 ألف ضحية (البزاز، 1992: 52) ولكنه عرف ارتفاعا كبيرا في السنوات التالية عرف الوباء انتشارا وأصبح أكثر فتكا حتى أنه كان يموت في كل يوم مئات من الناس، إذ في سنة واحدة فقط (1201هـ-1787م) حيث بلغت عدد الوفيات في هذه السنة 17.000 نسمة، وهو رقم كبير ومؤلم. وفي صيف (1232هـ - 1817م) وفاة خمسمائة نسمة في كل يوم، وكلهم مصاب بالطاعون (الجيلالي، 2014: 233) وكانت أقصى فترات هذا الوباء قساوة بين سنتي 1817-1822م مما أدى إلى هلاك عدد كبير من الأهالي، إذ قدر عدد الضحايا ب 20 ألف ضحية (البزاز، 1992: 52) ، وتميزت المدة بين النصف الثاني من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر بعد حالة من الركود الاقتصادي والانكماش العمراني، فساءت بذلك الأوضاع الاقتصادية والمعيشية واقفرت الأرياف والمدن من سكانها وتكاثرت الأمراض والأوبئة بشكل يثير الانتباه ويدفع إلى التساؤل (البزاز، 1992: 123-124)، وللإشارة فهذا الوباء لم يكن محصورا في إقليم الجزائر، بل انتشر كالهشيم على طول الدول المطلة على البحر المتوسط وذلك لكثرة الاتصالات بين هذه الدول، أما بؤرة هذا الوباء الأصلية فكانت في بعض المدن التركية ، التي كانت تُعد من المراكز المهمة التي كانت محطة نزوح للأجناس المختلفة وقد كان الوباء ينتقل من المدن التركية الساحلية إلى بيروت والإسكندرية ثم دول المغرب العربي، وقد تضمنت أحد التقارير التي أعدها القنصل الفرنسي بالإسكندرية السيد " دروفتي " Drovetti " مايلي: " لقد طلب قناصل الدول المقيمين بمصر من محمد علي أن يمنع الجنود العثمانيين المصابين بالطاعون من النزول من سفنهم خشية انتشار الوباء في البلاد، ولكن رغم الإجراءات التي اتخذها باشا مصر نزل الجنود إلى البر وحينئذ بدأ الوباء في الانتشار. (شويتام، 2011: 85).

ومن بين العوامل المسببة إلى تفشي هذا المرض هو سوء الحالة الصحية مما ساهم في انتقال العدوى وانتشار الأمراض من الأقطار المجاورة، وذلك لصلة الجزائر بعالم البحر المتوسط وانفتاحها على أقاليم السودان وعلاقتها بالبلاد الأوربية وارتباطها بالمشرق العربي فمن هذه البلدان ولاسيما مصر والحجاز واستانبول انتقلت مختلف الأمراض كالكوليرا والتيفوس والجذري والطاعون والدمل والسل. وكانت أهم الطرق لانتقال هذه الأمراض الفتاكة من مواطنها الأصلية بالمشرق إلى الجزائر هو حركة الوافدين، التي كانت تتمثل في التجار والبحارة والحجاج والطلبة من أقطار الشرق الأوسط إلى الموانئ الجزائرية. (شويتام، 2011: 85)، فقد كان الشيخ حمدان بن عثمان خوجة (خوجة) الحنفي شاهداً عيان على ذلك الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر، ويصور لنا تلك المشاهد المُرعبة من هول أعداد الموتى وانتكاس التجارة وجمود الحركة العلمية بقوله: "ولقد حضرت في مدة حياتي وهي تنيف على سنين وقوع الوباء بالجزائر متفرقة على سنين كان مجموع تلك المحنة عشرين سنة فشوهت خلقة الجزائر بعد أن كانت عذراء مستحنة فافتقرت معالم البلاد وتشوشت أحوال العباد واضمحل العلم وذووا الاستعداد وانقرض من العساكر من كان عدة في العمران والفلوات وخلف جميعهم بعد العناء والتعب خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فغشى يومئذ الفساد واكتمل واتسع بالخرق ولم يبق للراقع محل فيالها من رزبة تقشعر لها الجلود الحساسة. (حمدان خوجة إتحاف المنصفين والأدباء والاحتراس من الوباء). (خوجة، 1838: 04).

2.3 دراسة لبعض نماذج من شواهد قبور المتوفين بالوباء:

ومن بين النماذج الشاهدية التي تحصلنا عليها ثلاثة شواهد قبورية، توضح لنا نصوصها الكتابية الأسماء الكاملة لهؤلاء المتوفين وكذا تاريخ وفاتهم وأسباب وفاتهم، فهذه المعلومات هي جد مهمة، لإثراء الدراسات التاريخية والاجتماعية، وتؤكد في الوقت نفسه صحة المصادر التاريخية، كما تميظ اللثام عن فترات صعبة عاشت هذه المدن التي وجدت بها هذه الشواهد المادية، خاصة في الفترة المسجلة على الشواهد (الفترة

الأوبئة في العهد العثماني في الجزائر من خلال شواهد القبور دراسة لبعض النماذج العثمانية) ، فقد كانت تلمسان إحدى العواصم المهمة لبابك الغرب الجزائري، وسنحاول من خلال هذه النماذج استنباط بعض المعلومات المهمة من خلال مضامين الكتابات الشاهدية و التي تُعد من الوثائق المادية الاي تؤرخ لتلك الفترات العصبية وهي كما يلي :

-الشاهد الأول:



-هذا قبر الحر/

-الجليلة الشريفةالحس/

-يبة امة الله فاطمة بنت/

-الشريف الحسن مولاي محمد/

-بن سجلماسي توفيت بالوباء/

-رحمة الله عليها عام/

-ثلاثة عشر ومايتين/

-الألف/

-الدراسة الوصفية:

شاهد قبر مصنوع من الحجر الرملي ذو شكل أسطواناني ذو لون أمغر توج في جزئه العلوي برقبة تضمنت رسماً زخرفي تمثل في وريدة مؤلفة من إحدى عشر بتلة ، يبلغ قطر الحقل الدائري 35سم مُحاط بسلسلة من الحلقات بعرض 5،04 سم، تتألف كتابة الشاهد من ثمانية أسطر، يتألف الشريط الكتابي من ثمانية أسطر كتبت بخط الثلث المغربي، ونُقشت بأسلوب النقش البارز، وقد فُرشت الكتابة بعدد من العناصر الزخرفية قوامها بعض الأجزاء النباتية ، كما تميز حروف الشاهد بالإستقامة و الرشاقة والتناسب والشاهد هو في حالة جيدة.

-القيمة التاريخية والأثرية:

تضمن الشاهد كلمة "الوبا" التي جاءت في السطر الخامس من الشاهد ومن خلالها يتبين لنا من غير شك أن صاحبة القبر كانت من بين ضحايا الوباء الذي ضرب المنطقة، ومن خلال اسم عائلتها " السجلماسي" يتضح لنا أنها ذات نسب وتنتهي إلى إحدى العائلات الشريفة ذات الأصول الممتدة إلى مدينة سجلماسة في جنوب المملكة المغربية، وقد توفيت في عهد الداوي مصطفى باشا (1212-1220هـ/1798-1805م) (معزوز ودرياس، 2001 : 214).

-الشاهد الثاني:



- 1- هذا قبر الحرة
- 2- الجليلة الأصيلة أمة الله
- 3- السيدة فاطمة بنت الطالب
- 4- الأديب السيد محمد بن عبد
- 5- الكريم توفيت بالوبا رحمة
- 6- الله علمها في شهر ربيع
- 7- النبوي سنة أربعة عشر
- 8- ومائتين بعد الألف.

-الدراسة الوصفية:

شاهد قبر ذو شكل مستطيل مصنوع من الحجر الرملي تبلغ مقاساته: 60 سم x 37سم، ويبلغ ارتفاع إطار الكتابة: 40سم x 32سم، وأما سمك الشاهد فقد بلغ : 05سم، يتكون الشاهد من إطارين، أحدهما خارجي وقد احتوى مجموعة من الزخارف النباتية والهندسية، فنجد المنظومة الزخارف النباتية قد تجلت بوضوح في أوراق النباتات وأشجار السرو المحورة عن الطبيعة، أما الهندسية فتجسدت في شكل الهلال وبعض الدوائر الهندسية، وقد صمم الفنان الشريط الكتابي على هيئة قوس أو عقد مفصص

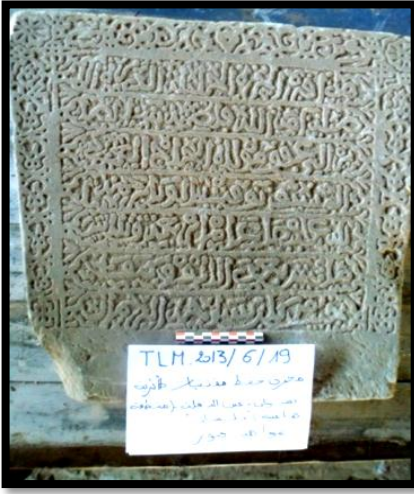
مكون من عدة فصوص، كما نُمقت زوايا هذا الأخير(العقد) بزخارف نباتية متنوعة غاية في الجمال والروعة، والهدف من هذا الإصراف الزخرفي هو رغبة الفنان في سد الفراغات الموجودة فيه، وقد جاءت الكتابة متناسقة ورشيقة وزاد فيها استواؤها على سطور مستقيمة على مستوى واحد، تتألف كتابة الشاهد من ثمانية أسطر، نفذت بخط الثلث المغربي، بأسلوب النقش البارز، والشاهد هو في حالة جيدة.

-القيمة التاريخية والأثرية:

من خلال كلمة "الوبا" التي جاءت في السطر الخامس من الشاهد تتضح لدينا الرؤيا حول الإطار التاريخي لهذا الأثر الفني، الذي يرجع إلى الأيام العصيبة التي عاشتها الجزائر بسبب المجاعة وسوء الأحوال المعيشية، مما أدى إلى تفشي الأمراض والأوبئة الفتاكة مثل الطاعون، الذي أنهك كاهل المجتمع الجزائري، نظرا لعدد الضحايا من جراء هذه النازلة، فمن خلال الإحصائيات التاريخية نجد أن هذه الأوبئة كانت تفتكُ بجزء كبير من الأهالي يوميا، حتى أنه كان يموت في كل يوم مئات من الناس، إذ في سنة واحدة فقط (1201هـ/1787م) مات لهذه الأسباب 17.000 نسمة، وقدر عدد ضحاياه في عام 1788م بـ 15793 ضحية منهم 13482 مسلم و1771 يهودي و540 مسيحي، وكان عدد ضحايا المسلمين يصل يوميا إلى 200 أو 240 ضحية، بينما قدر عدد ضحايا الطاعون بين سنتي 1792م -1793م بـ 12 ألف ضحية)(البزاز، 1992: 52) ، ويتضح من خلال تاريخ الوفاة أن هذه المتوفية قد عاصرت فترة من أزهى فترات الوجود العثماني في بايلك الغرب وهي حقبة حكم الباي محمد بن عثمان الكبير، ولكنها اتسمت في أواخرها باللحظات العصيبة بسبب تفشي مرض الطاعون الذي شهدته الجزائر بين سنة 1207هـ/1792م و1208هـ/1793م، أين ضرب هذا الوباء أطنابه في هذا الإقليم، مما جعل باي وهران يفر إلى الجنوب خشية من الإصابة به، كما يتجلى أن صاحبة الشاهد كانت أحد ضحاياه، وعاصرت هذه الأخيرة أيضا فترة قصيرة من ولاية ابنه محمد عثمان باي سنة 1213هـ/1798م.

- الشاهد الثالث:

- تفكيك النص:



- 1- هذا قبر الحرة الجليلة الدرة الأ
- 2- صيلة أمة الله فاطمة بنت الصا
- 3- ير إلى عفو مولاه الحاج العربي
- 4- المسيق توفيت بالبوا رحمة
- 5- الله عليها عام أربعة وثلاثين
- 6- ومايتين وألف وكيف
- 7- يخيب من كان بساحة الرحمان .

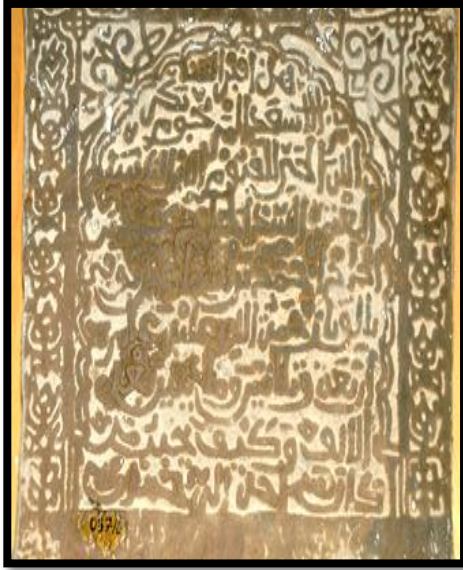
- الدراسة الوصفية:

شاهد قبر ذو شكل مربع مصنوع من مادة الحجر الرملي تبلغ مقاساته: 53سم x 52سم، ويبلغ ارتفاع إطار الكتابة مقاساته: 39سم x 38سم، وأما سمك الشاهد قارب 05سم، وقد أحاط الفنان هذا الشاهد بإطار خارجي وزوقه بجملة من العناصر النباتية والتي كان قوامها زخرفة شجرة السرو المحورة عن الطبيعة، والتي عبر عنها بوضوح من خلال تتابع رأسي تحيط بالإطار الأيمن والأيسر، أما الإطار العلوي فنال حظه أيضا من خلال زخرفة توريقية عبارة عن أوراق وبراعم نباتية، إضافة إلى الدوائر الهندسية التي تمثلت في أزهار متفتحة محورة عن الطبيعة، والتي وضعها النقاش في الزوايا العلوية الشاهد، أما الإطار الداخلي فجعله الفنان فضاءً للكتابة حيث قسمه إلى سبعة أشرطة كل منها يحوي سطرا، ونفذت كتابة الشاهد بالخط المغربي، وبأسلوب النقش البارز، وجاءت الكتابة مستوية السطور وتتميز بالاتزان والرشاقة، ووظف الفنان ظاهرة الإعجام والشكل على الحروف، وتآلف الشريط الكتابي من سبعة أسطر، والشاهد في حالة متوسطة من الحفظ بسبب كسر في جزئه السفلي.

- القيمة التاريخية والأثرية:

صاحبة هذا الشاهد يُحتمل أن تكون من بين الضحايا الذين حصدهم الوباء، هذا المرض الخطير الذي عرف ذروته في هذه الفترة، حيث عرف ارتفاعا وانتشارا كبيرين بحيث أصبح أكثر فتكا، مما أدى إلى هلاك عدد كبير من الأهالي، وكنا ذكرنا قبل هذا تفصيلا للفترات التاريخية التي ظهر بها هذا المرض وما حصده من أشخاص.

-الشاهد الرابع :



1- هذا قبر /

2- الأسعد المرحوم بكرم /

3- الله الحي القيوم الإبن الناسك /

4- المعتمر السيد الحاج محمد بن /

5- الحاج أحمد بن إسماعيل توفي /

6- بالوباء رحمة الله عليه عام /

7- أربعة وثلاثين و مائتين بعد /

8- الألف وكيف يخيب من /

9- كان في ساحة الرحمان /

-الدراسة الوصفية: شاهد قبر ذو شكل مربع مصنوع من الحجر الرملي بلغت مقاساته 51.5سم/51.5سم، أما ارتفاعه فناهز 40سم/37سم، وبلغ سمكه 5سم، مُحاط بشريط زخرفي قوامه مجموعة من العناصر الزخرفية التي تمثلت في شجيرات من السرو المحور عن الطبيعة وقد جاءت هذه الأشكال الهندسية وفق تكرار عمودي وأفقي. نفذت كتابة هذا الشاهد بخط الثلث المغربي، بأسلوب الحفر البارز، وتتكون من تسعة أسطر، وقد جاءت كلمات الكتابة غير منتظمة بحيث لم تراعي عنصر الكتلة والتناسب، والشاهد في حالة جيدة من الحفظ.

- القيمة التاريخية والأثرية للشاهد:

من خلال التاريخ المذكور على الشاهد 1234هـ يتضح لنا أنه ينتمي لنفس قائمة ضحايا الوباء الذي اجتاحت بابل في الغرب الجزائري في هذه الفترة ، ويظهر من خلال مضامين هذا الشاهد ولاسيما بعض الألقاب الواردة عليه مثل " الناسك " . " المعتمر " و التي تُشير إلى قيام هذا المتوفي بزيارة البقاع المقدسة مما يدل على مكانة هذه الأخيرة في المجتمع الجزائري في العهد العثماني وما يحظى به الشخص الذي يذهب إلى هناك من القدر والاحترام.

-الشاهد الخامس:



1- هذا قبر الشريف

2- الحسن مولاي محمد بن

3- الشريف الحسن بن مولاي الحاج

4- مدين بن مولاي (...) توفي بالوبا

5- رحمة الله عليه عام

6- خمسة وثلاثين وما

7- يتين بعد الألف

- الدراسة الوصفية:

شاهد قبر ذو شكل (رأسي) أسطواناني مصنوع من الحجر الرملي، يتألف من قاعدة مستطيلة مقاساتها: 40سمx18سم، وفي وسطه دائرة قطرها 37سم، ويرتكز على قاعدة مقاساتها: 42سم x 18سم، وأحاط الفنان هذا القرص الدائري بشريطين أحدهما بسيط والآخر زخرفي على شكل فصوص، أما القرص الدائري الأوسط فقد احتوى على كتابة بالخط المغربي، سُجلت بأسلوب النقش البارز، وتتخلل الفضاء الكتابي بعض العناصر الزخرفية الصغيرة، والتي أدمجها الفنان للتخلص من المساحات الفارغة، والشاهد في حالة جيدة من الحفظ .

- القيمة التاريخية والأثرية للشاهد:

هذا الشاهد من خلال أيضا عبارة "توفي بالوباء" يتبين لنا أنه يعود إلى الأعوام المحزنة التي عرفت فيها الجزائر أكبر موجة من الأمراض والأوبئة، خاصة وباء الطاعون الذي أتى على الأخضر واليابس وحصد الآلاف من أرواح الجزائريين، وذكرته المصادر، وقد عرف هذا الوباء ارتفاعا وانتشارا كبيرين في هذه السنوات. وقد أصبح بذلك أكثر فتكا حتى أنه كان يموت في كل يوم المئات من الناس، ففي صيف (1232هـ/1817م) سجل موت خمسمائة نسمة في كل يوم، ومعظمهم ماتوا بالطاعون (الجيلالي، 2014: 82)، واشتد هذا المرض بشكل كبير بين سنتي 1817-1822م، مما أدى إلى هلاك عدد كبير من الأهالي، إذ قدر عدد الضحايا بـ 20 ألف ضحية (البزاز، 1992: 52)، ولعل هذا المتوفي كان أحد ضحايا هذا الوباء الذي عرفته الجزائر في تلك الفترة، كما يظهر جليا أن هذا المتوفي قد عاصر فترة حكم آخر بايات وهران وهو "الباي حسن" وكان العامة ينادونه "الباهي حسن" (1232هـ/1826م)، حسب صاحب كتاب أنيس المسافر (ابن عبد القادر، 1974: 28)، والملاحظ من خلال عبارة الشريف أنه من عائلة ذات عراقية في النسب، نظرا لتكرار عبارات الشرف كالشريف، الحسني، مما يوحي أن الشرف ليس خصلة من خصال المتوفي وإنما دليل شرف النسب من أسلافه الكرام، وأنه ينتمي إلى ذرية الحسن ابن علي رضي الله عنه.

4. خاتمة:

من خلال دراستنا لهذه الشواهد، ورغم ما تحتويه من الجانب الشكلي من قيمة فنية وزخرفية بالنظر إلى تعدد أساليب الكتابة وأنماط الزخارف الجمالية والفنية المجسدة عليها، فهي في الوقت نفسه تمثل وسيلة من وسائل التأريخ ووثيقة في غاية الأهمية والتي تؤرخ لفترات حساسة من تاريخ الجزائر في العهد العثماني، وعادة ما تغفل المصادر التاريخية والإخبارية في سرد بعض المعلومات المهمة، خاصة ما تعلق بأسماء المتوفين من جراء تلك الأوبئة، إضافة ألقابهم ومهمهم، فهذه المعلومات المستقاة من هذه

الشواهد تُشكل لبنة جديدة وهامة في مسار البحث العلمي، وإثراء قاعدة المعلومات الخاصة بالسجلات التي تتضمن أسماء المتوفين وأسباب وفاتهم، فهي بذلك تُساهم في إثراء هذه السجلات ، وتصحح أحيانا ما وقعت فيه هذه الأخيرة من الأخطاء سواء سهواً أو تعمداً، فالضرورة ملحة جدا في هذا الإطار من أجل الاطلاع على الكثير من الحقائق التاريخية واستنباط المعلومات من هذه الكتابات الشاهدية، فهي ماتزال تُشكل خزاناً معرفياً لأسماء وألقاب الكثير من طبقات المجتمع في كل زمان ومكان، إضافة إلى معرفة أسباب وفاتهم، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمتوفين نتيجة أوضاع خاصة وحساسة مثل هذه الأزمات الصحية ونتيجة الأمراض الفتاكة، وهذا ما سيساعد الباحثين سواء في التاريخ أو علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا أو حتى التخصصات الأخرى من أجل خلق قاعدة من المعلومات والمعطيات الكفيلة بالمساهمة في بحوثهم المختلفة، ولا يقتصر الأمر فقط على هذه الشواهد القبرية فقط من الناحية الأثرية.

6. قائمة المراجع:

-المصادر:

- ابن أبي زرع علي الفاسي. (1999م) الأنيسُ المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط: المطبعة الملكية.
- ابن الأثير مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (1994م)، النهاية في غريب الحديث والأثر . (الرياض. المملكة العربية السعودية. دار ابن الجوزي للنشر و التوزيع.
- ابن خلدون عبد الرحمن (1999م). المقدمة وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، اللبناني، بيروت. دار الكتاب.
- الجوهري إسماعيل بن حماد.(1984م). تاج اللغة وصحاح العربية . الجزء 03. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار . بيروت. دار العلم للملايين.
- خواجة حمدان بن عثمان . (1838 م) .إتحاف المنصفين و الأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء. دار الطباعة، الجزائر.
- المراكشي، ابن عذاري.(1985م). البيان المُعرب في أخبار الأندلس و المغرب، قسم الموحدين. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون. الدار البيضاء دار الغرب الإسلامي .1985م .

-المراجع:

- ابن قربة ،صالح،.(2011م). أبحاث ودراسات في تاريخ وآثار المغرب الإسلامي وحضارته، عين مليلة الجزائر، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع .

أرنولد ديفيد. (1988م). الطب الإمبريالي و المجتمعات المحلية. ترجمة مصطفى فهمي. الكويت. عالم المعرفة.

- البزاز محمد الأمين، (1992م). تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الرباط، المملكة المغربية.
- الجيلالي عبد الرحمن بن محمد، (2014م). تاريخ الجزائر العام، الجزء 03. الجزائر شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع .

- جمعة إبراهيم، (1969م). دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى من الهجرة مع دراسة مقارنة لهذه الكتابات في بقاع أخرى من العالم الإسلامي. القاهرة، دار الفكر العربي.

- فيلالي عبد العزيز. (2007م). تلمسان في العهد الزياني، الجزء 01. الجزائر موفم للنشر.

- سعيدوني ناصر الدين، (1984م). دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، الجزء الثاني، الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب .

شeldon واتس، (2010م). الأوبئة و التاريخ المرض و القوة الإمبريالية، ترجمة أحمد محمود عبد الجواد، القاهرة. المركز القومي للترجمة .

شويتام، أرزقي. (2011م). نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1830 - 1800 م . الجزائر. دار الكتاب العربي.

شيحة مصطفى، (1988م). شواهد قبور إسلامية من جبانة صعدة باليمن، الجزء الأول. القاهرة. مكتبة مدبولي.

معزوز عبد الحق و درياس لخضر. (2001م). جامع الكتابات الأثرية العربية، الجزء الثاني كتابات الغرب الجزائري مجموعة متحف تلمسان، المتحف الوطني للآثار القديمة، بئر خادم. الجزائر. مطبعة سومر .

-الأساطروحات:

-معزوز، عبد الحق. (2004-2005م). شواهد القبور في الجزائر دراسة تنميطية وفنية 13-2 هـ 19-8م. رسالة دكتوراه . معهد علم الآثار، جامعة الجزائر،

-المجلات:

-التهامي عائشة عبد العزيز (2005م). مارس. "الكتابات العربية على بعض شواهد وتراكيب القبور العثمانية". مجلة المؤرخ العربي. العدد 13. 265-277.

-خالد بلعربي، (2009م). يونيو. المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني 845-698 هـ / 1442-1299)، دورية كان التاريخية .

-قطاية ،سليمان (1982م). أبريل، الأوبئة في الطب العربي .مجلة التراث العربي، العدد السابع. 54-59.

-المراجع باللغة الأجنبية:

Périer Napoléon & Adrien, berburgger. (1847). De l'hygiène en Algérie, exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840-1841- 1842 (Vol. 02). paris. Langlois et Leclercq Victor Masson libraires .